التحليل النفسي للأحداث

أ . د . ندى موسى عباس

جامعة ديالى - كلية التربية للعلوم الانسانية

تاريخ استلام البحث :	تاريخ قبول البحث :
2026/1/19	2026/2/19

الملخص :

يعد التحليل (التأويل، التعليل، التفكيك، الهيرمينوطيقا *Hermeneuein*) والشرح (التفسير، التوضيح الفينومينولوجيا *Phenomenology*) من بين أهم أدوات الهستوريوغرافي *Historiography*، للوصول الى المعرفة التاريخية، ولتحقيق الغاية الأولى من الكتابة التاريخية الا وهي فهم الحاضر والتخطيط الجيد للمستقبل، أو بمعنى آخر تجنب تكرار الأخطاء وتحسين قرارات المستقبل.

إن أساس دراسة التاريخ وتدوينه يقوم على عدة عناصر هي: الشخوص(الإنسان فردا وجماعات)، والسردية(موضوع الحدث)، والزمن(العصر، التاريخ)، والذاكرة(تقييد الأحداث أو الكتابة التاريخية)، ولتحديد قانون سببي للعلل لا سيما في مجال شخوص الحدث، كان لا بد للمؤرخين والباحثين من تحقيق نسبة عالية من الدقة والمصداقية ومقاربة حقيقة الواقع في مسألة تصوراته لطبيعة انفعالات الافراد وردود أفعالهم(مشاعرهم وعواطفهم)، والتي غالبا ما يكتنفها الغموض، فإن المؤرخ هنا يحتاج للاستعانة بعدة علوم يكون علم النفس التحليلي من ضمنها، الأمر الذي أدى الى تنوع الاتجاهات البحثية وتعدد المجالات العلمية، وهنا تتضح أهمية وأثر التحليل النفسي عند دراسة دور الأفراد والمجتمعات في تشكيل الأحداث وسيرها(وقوعها ونتائجها).

نستطيع القول إن ثمة علاقة تكاملية قوية بين كلا العلمين التاريخ والنفس، بمنافع متبادلة وأهداف مشتركة! فعلم التاريخ يقدم لعلم النفس المادة الخام للأحداث والتجارب البشرية، ليتم تفسير كيفية تغير المفاهيم والسلوكيات الإنسانية عبر الزمن، وعلم النفس بدوره يمد المؤرخ بالأدوات والآليات والطرق والأساليب المنهجية، التي تمكنه من فهم المبادئ النفسية المتحكمة بدوافع السلوك البشري للأفراد والجماعات، مما يجعل التحليل التاريخي أكثر عمقًا، وأقرب إلى الحقيقة، وأساس منهج هذه العلاقة هو التحليل النفسي *psychanalyses*، وفي خضم محاولات التأويل النفسي التاريخي للباحثين برزت مصطلحات مقاربة لفهم الوظائف المتبادلة، ظهر مصطلح "علم النفس التاريخي أو التاريخ النفسي(السيكوتاريخ) *Psychohistory*"، وكذلك مصطلح "التاريخ الاجتماعي *Social History*".

الكلمات المفتاحية: التاريخ. النفس. التحليل*

Research Summary :

Psychological analysis of events

Analysis (explanation, interpretation, reasoning, deconstruction) and understanding (interpretation, clarification, phenomenology, hermeneutics) are

among the most important tools of historiography, to reach historical knowledge, and to achieve the first goal of historical writing, which is to understand the present and plan well for the future, or in other words, to avoid repeating mistakes and improve future decisions.

The fundamental structure of historical study and documentation rests on the following elements: individuals (both people and groups), narrative (the subject of the event), time (the era, the date), and memory (the historical record of events and historical writing). According to the law of causality, and specifically in the matter of studying the figures involved in an event, the historian needs to draw upon multiple disciplines, including psychology, in order to avoid He falls far from the truth in his perceptions of the nature of individuals' emotions and reactions (their feelings and passions), which may be shrouded in ambiguity regarding the occurrence of the event. Therefore, his knowledge of psychology may help him raise the percentage of his approach to the truth of reality, by diagnosing the causes and factors. This has produced a multiplicity of research trends and scientific fields, and from where the importance of the role of psychoanalysis becomes clear when studying the impact of individuals and societies in shaping events and their course (their occurrence and results).

We can say that there is a strong complementary relationship between the two sciences of history and psychology, with mutual benefits and shared goals! History provides psychology with the raw material of human events and experiences to explain how human concepts and behaviors change over time, and psychology, in turn, provides the historian with the tools The mechanisms, methods, and systematic approaches that enable him to understand the psychological principles controlling the motives of human behavior for individuals and groups, which makes historical analysis deeper and closer to the truth. Thus, the basis of the methodology of this relationship is psychoanalysis. In the midst of attempts at psycho-historical interpretation by researchers from both sciences, terms similar to understanding their mutual functions emerged; so what was termed historical psychology or psychological history (psychohistory) was known, as well as social history.

المقدمة

مع ان مناهج العلوم في تغير دائم مع بدواعي التقدم، لكن السؤال المهم هنا هو: لماذا لا يرتقي المؤرخ بتحليلاته لمستوى الحقيقة التاريخية الكاملة ؟! ولِما تضل نسبة الملموس منها ضئيلاً ؟! ويبدو ان السبب الرئيسي لذلك يعود الى طبيعة المادة التاريخية التي تكون عرضة لتغييب الحقيقة بشكل متعمد، في تشويهها بحذف أجزاء مهمة منها، أو الإضافة أو التزوير أو التحريف، ولكي يحقق المؤرخون نسبة مرتفعة من الموضوعية والدقة العلمية بمنهج البحث التاريخي، كانت محاولاتهم المتواصلة والمتشددة لفتح أفاق جديدة ورحبة في مسألة تحليل النصوص التاريخية، بغية الوصول الى مستوى من الفائدة العلمية والإمتاع الفكري

والفلسفي! ولذا فإن استعانة المؤرخين بالعلوم الأخرى بات ومنذ عصر نهضة العلوم في اوروبا(القرون 14-16م) أمر لا مناص منه، من أجل الوصول الى اعلى مصداقية للحقائق التاريخية، تمكن المفكرين والفلاسفة من صياغة المبادئ والقوانين لنشوء الحضارات وانحطاطها.

يعد التحليل التاريخي من أهم وظائف السببية(العلية)، وهو بعد عامل ايجابي لإتقان فن تأويل النصوص التاريخية، وملأ الثغرات بـ" الاستنتاج الاسترجاعي"، ورغم انه قد يتعكز على الفرضيات والنظريات، لكنه ينقل مهمة الباحث التاريخي من مجرد السرد الجامد، الى الدراسة العلمية المعمقة وفهم المعاني (الذاتية والوجودية)، أي انه يرسم صورة أكثر دقة لحقيقة الواقعة، المبنية على مجموعة افعال وسلوكيات الناس المختلفة من فرد الى اخر، ومن هنا ظهر لنا مصطلح السيكوتاريخ *Psychohistory*،ويقصد به الجمع بين علمي التاريخ والنفس.

بلغت الضرورة والحاجة الملحة عند المؤرخين للتحليل النفسي لشخصيات الأحداث، وبحث الدوافع النفسية الكامنة فيها، بترسخ التداخل الواضح بين العلمين (التاريخ والنفس)، لاسيما بعد نشوء علم النفس(السيكولوجيا *Psychology*) وهو آخر العلوم المنفصلة عن الفلسفة؛ حيث اكتملت مناهجه وفروعه ومنها التحليل النفسي، تحديدا في القرن التاسع عشر (19) الميلادي، ومن ثم ترسخ علم النفس السلوكي بالقرن الذي تلاه.

بات واضحا ان العلاقة بين علمي التاريخ والنفس قد تجاوزت كونها علوم مساعدة لبعضها! فالحدود الفاصلة بينهما مخترقة والعلاقات متبادلة بلا تكلفة ومن دون تهيب، اذ كلما أكتنف الغموض اي مشهد تاريخي، وجدت هناك عقدة نفسية كامنة في فردا ما له علاقة بالحدث، ومن هنا كانت الحاجة شديدة وملحة لإدخال البعد الزمني في سيكولوجية الشخصيات التاريخية المحورية المؤثرة ، ومن خلال التحليل النفسي والاخلاقي لسيرهم الذاتية وعلاقاتهم مع بيئتهم وتفاعلهم مع مجتمعهم، الأمر الذي يُمَكِن الباحثين من فهم حوادث التاريخ المتنوعة، سواء كانت ظواهر اجتماعية أو مسائل اقتصادية أو تيارات فكرية أو اتجاهات ثقافية عامة(اللغة والتراث الأدبي والفلسفي والفنون)، وإماطة اللثام عن جوانب الحياة المعبرة عن هموم الناس ومتاعبهم اليومية، حتى من خلال طرائفهم (المزحة والنكتة والأغنية)، والتي تعكس غالبا سيكولوجيتهم النفسية والاجتماعية، مما يساعد في تشخيص روح العصر وطبيعة المجتمعات (أحوال البلاد والعباد).

من بين أهم الباحثين المبرزين في العصر الحديث، الذين أثرت مؤلفاتهم التحليل النفسي التاريخي، كان المؤرخ الألماني يوهان جوتفريد هردر *Johann Gottfried Herder* (1744- 1803م)، وهو فيلسوف ومنظر لاهوتي وكاتب وشاعر رومانسي وناقد أدبي وتاريخي، وكذلك العالم الموسوعي (الطبيب والمفكر والفيلسوف والمؤرخ والآثاري وعالم الفيزياء والكيمياء والبصريات والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا) الفرنسي غوستاف لوبون *Gustave Le Bon*(1841-1931م) حيث أنه كفيلسوفُ في التاريخ والحضارة والأعراق وتحليل اللاشعور، جعل البعد النفسي هو المحرك الأساس لتطور الأمم وهو بعد أول من أكتشف الصفات النفسية وخصائصها للجمهور (علم نفسية الجماهير)في أوربا، فضلا عما صنفه في فهارس البيوغرافيا *Biographie* التي عدت كمنهج أساسي في الدراسات الاجتماعية، وقدم بعدها تحليلاته النفسية القيمة والمفيدة وبين أثر سلوكيات الأفراد والجماعات في تشكيل الاحداث، بمقارنته باوجه التشابه بين علمي التاريخ والنفس! فساهم وبشكل جدي في الكتابة التاريخية العلمية، وبعد أن ساح بعدد من البلدان، موثقاً تاريخ الحضارات الكلاسيكية (العراقية والمصرية والهندية والعربية والاسلامية)، خرج لنا منها بخلاصة تاريخية استنبطها من جملة ملاحظاته ورؤاه الفلسفية في القوانين المدنية والنفسية لتطور الشعوب.

كانت معطيات علم النفس التحليلي *Analytical psychology* سببا في تنبيه المؤرخين في مجلة الحوليات *Annales* بحاجتهم الى التحليل النفسي للمادة التاريخية، وقد بدأ هذا العلم اولا وهو صاحب الفضل فيه مؤسسه الطبيب النمساوي الموسوعي سيغموند فرويد *Sigmund Freud* (1856-1939م)، ومساهماته في مجالات علم النفس والتاريخ والنقد الادبي، ودوره القيم في كشف القواعد النفسية للسلوك

الإنساني، ولتلميذه المحلل النفسي والطبيب النمساوي ويلهلم رايش *Wilhelm Reich*(1897- 1957م)، الذي أخرج دراسة مستفيضة للشخصية السلطوية، وكشفه لأسس علم النفس الجماعي للفاشية كتابه المعنون بـ "سيكولوجية الجماهير الفاشية" الصادرعام 1933م! بإشارته لكيفية وصول أدولف هتلر *Adolf Hitler*(1889-1945م) للسلطة واستسلام خصومه السياسيون له، فضلا عما كشفه عن أساليبه السياسية والخطابية وأحكام قبضته على الإرادة الجماهيرية، وما دفعه الألمان والعالم ثمنا باهظا بسببه. وكذلك الى عالم النفس السلوكي السويسري كارل غوستاف يونغ *Carl Gustav Jung*(1875-1961م)، ويعد من أبرز رواد علم النفس التحليلي، واليه يرجع الفضل في تأسيس المجال العلمي المسمى بـ اللاوعي الجمعي *Collective unconscious*، وجاء بعدهم بترتيب الأهمية في المجال نفسه عالم النفس والفيلسوف السويسري جان بياجيه *Jean Piaget*(1896-1980م) وهو متخصص باختبارات الذكاء.

ومن أبرز رواد التحليل النفسي التاريخي(*Psychohistory*)، يأتي أولا إريك إريكسون *Erik Erikson*(1902– 1994م)، حيث انه بعد ان أنتهى من تطوير نظرية مراحل النمو النفسي والاجتماعي، عاد ووظف النظرية في تحليل السيرة النفسية للشخصيات التاريخية، والكشف عن عوامل أزماتها، لا سيما في كتابه عن "مارتن لوثر" عام 1958م، واستكمالا لعمل إريكسون فان المؤرخ الامريكي لويد ديموس *Lloyd DeMause*(1931- 2020م) جاء بعده في إرساء قواعد التحليل النفسي في البحث التاريخي، وبفضل سعيه تأسس معهد التاريخ النفسي *Institute for Psychohistory* معتمدا وبشكل رسمي مادة التاريخ النفسي (علم نفس التاريخ) كمنهج أكاديمي لدراسة منظمة وذلك عام 1974م، وعلى أثره أنشأ للمعهد في نفس العام مجلة "التاريخ النفسي" *Journal of Psychohistory*، مبديً اهتمامه الشديد بالتاريخ النفسي وتلا ذلك أسس جمعية "التاريخ النفسي الدولي" عام 1977م.

يعد المؤرخ والفيلسوف والاستاذ الجامعي الفرنسي فرانسوا دوس *François Dosse* المولود عام 1950م من أهم المساهمين بمجال التحليل النفسي للتاريخ؛ فقد ركز على تحليل البنى التحتية النفسية للأحداث التاريخية، عبر تفكيك عواملها أولاً كل على حدة ومن ثم بيان اواصر الترابط بينها، وتكمن اهمية دراسة دوس من حيث ربطه التفسيرات الظاهرية للأحداث التاريخية بمنهج التحليل النفسي التاريخي، وتركيزه على البعد النفسي وأثره في تشكيل الوعي التاريخي، سعيا منه بتقديم كل ما من شأنه تحقيق المنطق العلمي والقيمة الموضوعية والمصداقية للدراسات التاريخية؛ مستعينا بمبادئ وأسس وفرضيات ومناهج العلوم المختلفة والمتنوعة، لا سيما ما طرحته فلسفة العلوم (الإبستيمولوجيا *Epistemology*). فيما أعترف المؤرخ والفيلسوف الانكليزي أرنولد توينبي *Arnold J. Toynbe*(1889- 1975م) صراحة انه أستلهم نظريته عن نشوء الحضارات الأولى الكلاسيك "الاستجابة والتحدي" من السويسري يونغ.

قسم البحث الى ثلاثة (3) مباحث، أستعرض المبحث الاول الإرهاصات التي سبقت التحليل النفسي التاريخي، والتي أدت الى ظهوره والعناية به، أما المبحث الثاني فقد ركز على ما أصبح يسمى بالمزاج النفسي للشعوب! وكانت تحليلات لوبون هي الأوسع استخداما لمصطلح المزاج(الطبع) النفسي في بحوثه، لأنه ببساطة اول من اطلقه؛ فيما كشف المبحث الثالث أثر المزاج النفسي ودوره في إشعال الحروب بين الشعوب.

المبحث الأول : إرهاصات التحليل النفسي التاريخي

يحتاج المؤرخ لكشف الحقائق ورفع نسبة مصداقيتها لقانون السببية التاريخية(مبدأ العلل أو العلية)، بمعنى الالتزام بمنهجية بحثية غاية بالدقة العلمية والحيادية (الموضوعية)، ولذا فان دراسة الأحداث التاريخية بمعزل عن التحليل النفسي للعوامل المسببة للوقائع [1]، يجعل مهمة الباحث أو المؤرخ عبارة عن تصفح ركام

1- إبراهيم: علم النفس والتاريخ، ص 140.

من المصنفات الممتلئة بالتفاصيل المملة مركونة على الرفوف دونما فائدة[1] ! ومع ظهور التحليل النفسي لفرويد تولد "بعدا جديدا في البيليوغرافية النفسية، لفهم ما يجري في عقل أي فرد من خلال فهم دوافعه اللاشعورية، ورغباته وصراعاته الذاتية"[2]. ومن أجل هذا ولهذا أبدى لوبون عنايته الشديدة على أساليب وطرق كشف المزيد من العلل؛ فتوصل الى مسألة تتبع السنن النفسية(المزاج النفسي للأمم) وهنا يشير بقوله:" التاريخ ينطوي على علل عامةٍ، ثم على ما لا يحصيه عدٌّ من العلل الصغيرة الاستثنائية التي يمكن أن تُشْتَقَّ من الأولى"[3]، وبذات الوقت قرر لوبون أنه:" يصعب جداً أن تعرف العلل الحقيقية لحوادث التاريخ"[4] ولذا فانه:" يجب الاستعانة بمناهج الاستقصاء التي تختلف اختلافا كبيراً عن المناهج التي أقتصر عليها المؤرخون زمناً طويلاً"[5].

في القرنين التاسع عشر(19) والعشرين(20) الميلاديين أحتدم الجدال حول سؤال وجودي: هل التاريخ علم أم أدب؟ وقد افضى هذا التساؤل الى تنبيه المؤرخين بضرورة حسم الامر؛ فكانت محاولاتهم للارتقاء بالمادة التاريخية وفلسفتها، والانتقال بها الى المفهوم العلمي، والسعي لصياغة قوانين محكمة وفرضيات ونظريات تفسر المسيرة التاريخية للإنسانية[6]! وبذل الجهود لإيجاد أساليب بحثية جديدة توصلهم للعلل التاريخية الدقيقة(رئيسية او ثانوية، مباشرة أو غير مباشرة)، وقد مرت هذه المساعي بمراحل، أدت الى ظهور مدارس تاريخية متنوعة، من حيث منهج البحث العلمي التاريخي، ومواضيع الطرح التاريخي وفلسفته، ومن أهمها كانت المدرسة الوضعية *Positivis*، والتي تأسست على مبدأ" لا تاريخ بدون وثيقة"، وقد طورها وثبت قواعدها العلمية الكاتب والرياضي وعالم الاجتماع الفرنسي وفيلسوف العلم الأول أوغست كونت *Auguste Comte* (1798-1857م)، بعدما كانت بنهج الرواية والسرد السطحي للأحداث السياسية والعسكرية، من دون تمحيص ولا تدقيق، معتمدة فقط على ما توفره الوثائق.

لقد أشتد الاهتمام بدراسة التاريخ وكتابته في أوروبا وتحديدا في كل من فرنسا وألمانيا، في وقت برزت به الحركة القومية؛ فظهرت أولا المدرسة الوضعية في ألمانيا (موطنها الاصلي) ومن ثم في فرنسا، وقوي أثرها بأواخر القرن التاسع عشر(19) الميلادي[7]،وكان هدفها السامي هو ان يتجرد المؤرخ من انتماءاته العرقية والقومية، على أمل تحقيق الحيادية التامة في الكتابة التاريخية! وباتباع منهج العلوم الطبيعية، وكان منهج المدرسة الجاد هذا هو الذي أفضى الى تقديس الوثائق واستمرار الحفاظ على السرد الجاف، ومع ان المدرسة الوضعية اكدت على دراسة تطور الأفكار والمجتمعات عبر الازمان، لكنها بحقيقة الامر ركزت باهتمامها على الافراد والسياسة والتسلسل التاريخي(الكرونولوجيا *Chronology*). ولتعزيز الاتجاه الوضعي تأسست في عام 1876م وتحديدا في فرنسا "المجلة التاريخية" *Revue Historique*، وهي أقدم وأهم مجلة فرنسية عنيت بالشأن التاريخي، وذلك من قبل غابرييل موند *Gabriel Monod* (1844-1912م)، وهدفت إلى تعزيز البحث التاريخي المنهجي القائم على الوثائق. وكرد فعل مباشر لهذه المدرسة ظهرت بعدها مباشرة في ألمانيا المدرسة التاريخانية *Historicisme*، وهو مصطلح ألماني فلسفي وفكري، كإشارة إلى الظواهر الإنسانية، وبوصفها نتاجًا لسياقها التاريخي وظروفها الزمنية، بحيث لا يمكن فهمها أو الحكم عليها خارج إطارها !

عند نهاية القرن التاسع عشر (19) والقرن العشرين(20) الميلاديين بدأت العلاقة تتطور بين علمي الاجتماع والنفس هذا من جهة ومن جهة اخرى ارتبط العلمين بعلاقة مع علم التاريخ، حيث برزت جهود

1- المرجع نفسه ،ص 139.

2- رريب الله: العلاقة بين علم التاريخ وعلم النفس والتأثير المتبادل بينهما، ص 119.

3- فلسفة التاريخ، ص 58.

4- إبراهيم: المرجع السابق، ص60.

5- المرجع نفسه، ص 66.

6- جداوي: المدرسة الوضعية التطور والخصائص، ص 9 .

7- المرجع نفسه، ص ص 4، 5، 7.

الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي ديفيد أميل دوركايم *David Émile Durkheim*(1858-1917م) بأبحاثه التي سعى من ورائها للتحرر من المدرسة الوضعية بتحليلاته للأحداث التاريخية، مستندا على دراسة الحقائق الاجتماعية، فأذاب المادة التاريخية في علم الاجتماع وحدده بإطاره مؤكدا بذلك على ان :"التاريخ لا يمكنه أن يكون علماً الا إذا قام بالتفسير، ولا يمكن أن يفسر الا عندما يقوم بالمقارنة وعندما يقوم التاريخ بعملية المقارنة فان التمييز بينه وبين السوسيولوجيا ينعدم"[1].

بعد دعوة دوركايم أنشأت لاحقا مجلة "التركيب التاريخي" *La Revued de synthèse* أو "التحليل التاريخي" وذلك في عام 1900م من قبل المفكر والمؤرخ والفيلسوف الفرنسي هنري بير *Berr Henri*(1863-1954م)، وقد شكلت المجلة هي الاخرى كرد فعل على المدرسة الوضعية، الامر الذي ساهم بدوره في تطوير الكتابة التاريخية، لاسيما ما يخص مسألة إزالة الحدود الضيقة بين علم التاريخ وبقية العلوم. وهكذا تكون المجلة قد حققت أمرين أساسيين، الاول انها كانت نقطة تحول لبلورت فكرة تأسيس مجلة "الحوليات" الفرنسية، والامر الثاني انها تعد انطلاقة فعلية في منهجية "تكامل العلوم" واندماج علم التاريخ مع العلوم. وقد كتب لوسيان فيفرFebvre *Lucien* (1878- 1956م) أحد أهم مؤسسي مجلة الحوليات (فيما بعد) واصفا طبيعة وظيفة مجلة "التركيب التاريخي" بقوله :"سيساهم في كتابة التاريخ اللغوي والأديب والجغرافي والقانوني والطبيب وعالم الأجناس والخبير بمنطق العلوم"[2].

على أثر مجلة "التركيب التاريخي" ظهرت مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" وذلك عام 1929م، وقد عنيت بإيجاد أبعاد واتجاهات علمية متعددة ومتنوعة للبنية التحليلية لدراسة علم التاريخ؛ ففضلا عن حقول السياسة والجغرافية والفلسفة؛ فإن المجلة وجهت عنايتها لدراسة الفرد والمجتمع من وجهات علمية أخرى مثل الاقتصاد والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا والأثنولوجيا، وعندئذ شهدت دراسة التاريخ بفضل هذه المجلة حركة ديناميكية مجددة وبآفاق موسوعية، كان من نتائجها نشوء مدرسة "الحوليات الفرنسية" *Annales School*من قبل ثلاثة (3) مؤرخين فرنسيين هم: مارك بلوكBloch *Marc* (1886-1944م)، ولوسيان فيفر، وفرناند بروديل *Fernand Braudel*(1902-1985م) الذين لفتوا أنتباه المؤرخين المعاصرين لمسألة" تجاوز النمط القديم الكلاسيكي في دراسة التاريخ المعتمد على السرد التاريخي"[3]، وحاجتهم للتطور العلمي في دراسة التاريخ، وضرورة الانفتاح على التحليل النفسي والنفس – الاجتماعي لفهم الظواهر الاجتماعية والتحليل للسمات العقلية والذهنية والنفسية لشخصيات الحدث (أنماط السلوك العاطفي والمشاعر والأحاسيس والأفكار والميول والرغبات والذكريات والانفعالات كردود الأفعال)[4]، وهكذا أعلنت مجلة مدرسة "الحوليات" الثورة الكبيرة للأبستمولوجيا *Epistemology* (فلسفة العلوم ونظرية المعرفة) في العلوم الاجتماعية، مكّنتها من التطرق لمواضيع جديدة بأنماط علمية متنوعة في دراسة وكتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي؛ فأدخل بروديل على سبيل المثال مجالات غريبة في التاريخ الجديد، كتاريخ الجنون والوسواس وغيرهما من القضايا التي طرحها التحليل النفسي.

لقد ترك بروديل أثراً واضحاً في توسيع مدارك معاصريه، بتأكيداته على انفتاح التاريخ على باقي التخصصات العلمية ولا سيما علم النفس، وحرصه على صفاء الرؤيا في دراسته للمواضيع والقضايا التاريخية[5]، وإدراكه التام بان علم التاريخ وحده لا يمكنه الوصول الى الحقيقة الفعلية، اذ لابد للمؤرخ وهو يصيغ عباراته ويعيد تركيب وتحليل الحوادث، ان يهتم بدراسة طبيعة وخصوصية المجتمعات واطلاعه على عاداتها وتقاليدها[6].

1- موحن :الاتجاه الدوركايمي في فلسفة التاريخ، الحوار المتمدن، 2015م.

2- عطار :أبستمولوجيا التاريخ ومدرسة الحوليات، العدد 97، السنة 24، 20017م.

3- صالح :مدرسة الحوليات ودور فرناند بروديل فيها 1929-1985م، ص 606.

4- كوثراني: تاريخ التأريخ، ص ص 204-205.

5- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

6- صالح: المرجع السابق، ص 607.

مما لا شك فيه ان العلمين(التاريخ والنفس) يتشاركان مسائل بحثية موحدة، ذلك ان كليهما يسعيان وراء فهم سلوكيات الانسان، وتحليل ردود أفعاله تجاه ما تصيبه من حوادث، فإذا كان المؤرخ يدرس الجذور التاريخية للقيم والأعراف والمعتقدات المجتمعية وتطورها؛ فان البعد الزمني عند عالم النفس يعد عنصرا غاية في الأهمية، ذلك انه عندما يحاول تشخيص طبيعة سلوكيات الافراد، وتصنيف تصرفاتهم وانفعالاتهم في مجتمعاتهم وما يتبعها من حوادث؛ فإنه بدوره يفتح آفاقا لا حدود لها في البحث التاريخي. والى ذلك يشير أحد الباحثين بقوله:" لكي يفهم المؤرخ تاريخ مجتمع الإنسان في حقبة تاريخية، لابد له من الدراسة النفسية لما كان سائدا فيها، فبدونها من الصعب فهم التطور المادي في المجتمع! لارتباط حركة الإنسان وفعله وحاجاته وقضاياه بإفرازات النفس وقواها الفاعلة، باعتبار إن السلوكيات الطبيعية والغير طبيعية ما هي الا انعكاس للذات على الواقع"[1].

من الأهمية بمكان الإشارة الى إن دراسات علماء النفس للسلوك البشري من حيث المعنى والشرح الوضعي، جعلت الفلاسفة والباحثين يعيدون النظر في الكثير من المعتقدات السائدة، كانوا قد اعتمدوها منذ عهد الإغريق(اليونانيين)؛ وقد أكمل تلامذة فرويد مشواره بتصديهم بشجاعة لمسألة تفسير حالات ارتقاء أو انحطاط الحضارات البشرية، اذ عدوا أهم عواملها هي بالأصل ردود الفعل الطبيعية للصراعات النفسية الكامنة بأعماق النفس الإنسانية[2]؛ فدوس على سبيل المثال يشير لهذه المسألة بقوله:" حيثما يكون بحث في الواقع، ستكون هناك دائما ألغاز"[3]، ويمضي متسائلاً:" الى أي حد يقدم التحليل النفسي قراءة منهجية في تناوله لوقائع تاريخية حاضرة غائبة؟"[4].

ان جذور التحليل النفسي للشخصيات التاريخية، قد بدأ مع نظريات الرجل العظيم، حيث كان الملوك وقادة الجيش والزعماء السياسيين يحاولون معرفة ما الذي يجري في عقول أعدائهم ومنافسيهم وخصومهم ! وذلك قبل أن يعنى الباحثين في تفسير السيرورة (العلة)الحركية للأحداث! والعمل على صياغة القوانين(السنن) لها، بمساعدة الاستدلالات والنتائج التي يتوصلون لها، ومن ثم منحها على طبق من ذهب لغيرهم من الدارسين والباحثين بالمادة التاريخية، ليبدو التلاحم بدوره معلنا بين فلسفة الحضارة وعلم النفس[5]، ومنذ ان قام العلماء النفسيين وحتى يومنا هذا، لم تقتصر جهودهم على تطبيق مناهجهم التحليلية على ظواهر مناحي الحياة كافة، لا بل أتسع مجالهم الى تحليل الشخصيات التاريخية ببعدها الزمني؛ فعلى سبيل الذكر لا الحصر حظيت ظاهرة النازية في تفسيرها كفكر وعقيدة قومية، بقدر كبير من اجتهادات المحللين النفسيين[6].

تأكدت حاجة المؤرخ لعلم النفس عندما " لم يستطع تفسير أي حركة سياسية بأسباب اقتصادية أو اجتماعية، وعند ذلك يمكن البحث عن أسرار الحركة في التاريخ الشخصي للزعيم، من حيث البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي تربى فيها للبحث عن عقد نفسية معينة مسؤولة عن حركته ضد آخرين أو معهم، وهذا الجانب النفسي في التاريخ قريب من عالم الميتافيزيقيا المجهول للناس، وباب الاجتهاد فيه واسع، لذا وجب الحذر الشديد"[7].

1- العلي: علاقة التاريخ بالسيكولوجيا ، الحوار المتمدن ، العدد 7029 .

2- عسران: العلاقة بين الحضارة وعلم النفس سيجموند فريد نموذجا ، ص ص 901، 902.

3- التاريخ والتحليل النفسي جينيالوجية علاقة، ص 131.

4- المرجع نفسه، ص 115.

5- عسران: المرجع السابق، ص 881 .

6- المرجع نفسه، ص 902.

7- رريب الله: المرجع السابق، ص116.

لم يضع لوبون فواصل بين التاريخ وعلم النفس[1]،وفضلا عن منهج التحليل النقدي؛ فقد أبدى غبطته لتداخل علم التاريخ مع علوم أخرى عديدة مثل علم النفس التحليلي وعلم النفس الاجتماعي، والفلسفة والأنثروبولوجيا، وبهذا تحولت دراسة التاريخ كما راها "من عمل الادباء الى عمل العلماء"[2]، ومن بحثه الدؤوب عن المزيد من المصداقية والدقة العلمية وحرصه المتناهي على الحيادية في كتاباته التاريخية، تمكن من التوصل لحقائق تاريخية ذات بعد تحليلي نفسي غاية في الأهمية، زادت من دقة الكشف لمجريات خطيرة في حوادث عدت نقطة تحول تاريخية، ساعدت في صياغة قوانين نفسية عامة[3].

المبحث الثاني : طباع الامم عند لوبون وتوينبي

تمكن لوبون بفضل أسفاره وطوفانه في قارات أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، من أجراء دراساته وأبحاثه المعمقة في عدة مجالات من علم الانسان(علوم الأنثروبولوجيا *Anthropology* منها: تاريخ الحضارات والتحليل النفسي للأمم والأعراق، ومجتمعات الشعوب في تعايشها مع بعضها وعاداتها الاجتماعية ومعتقداتها، وحتى عن أزماتها السياسية وأنظمتها الديمقراطية(البرلمانية)، والقوى الشعبية وكيفية بزوغ نجم الاشتراكية في بعضها.

كانت الدراسات النفسية بزمن لوبون قد بدأت تتسارع بخطاها في نموها وتفرعاتها، وبخضم سعيه كغيره من فلاسفة عصره، بالبحث عن عوامل نشأت الحضارات وتقدمها، ومن ثم انحطاطها وانهيارها، ونقل ما يبحث عنه من حقائق الى مستوى أعلى! تعمق لوبون في البعد النفسي(الطباع، الأخلاق، المبادئ، المزاج، السمات، الصفات، الخصائص) للأحداث التاريخية[4] وتوصل الى ان الانفعالات النفسية(العواطف *Emotions*،والمشاعر *Feelings*، والاحاسيس *Sensations*) هي صاحبة الدور الكبير في تكوين الذكاء[5].

منذ بداية القرن التاسع عشر(19) الميلادي أصبحت حالة الثوار موضع قلق للجميع! الأمر الذي أثار قريحة لوبون الى التحليل النفسي للجماعات، فسجل ملاحظاته وأعطى استنتاجاته وما استنبطه من الحوادث في كتابه "سيكولوجية الجماهير" عام 1895م، كشف به عن الطباع النفسية للجماهير لأول مرة في أوروبا، حيث أبتدأ" بدراسة ظاهرة الجماهير بطريقة علمية وأشار لاعتقاده ان منهجه التحليلي ليس في التاريخ ولا في علم الاقتصاد، وإنما في علم النفس الذي أستنبط منه روح الجماهير، وهذه الروح مكونة من الانفعالات البدائية، ومكرسة بواسطة العقائد الايمانية القوية"[6]. وعادة ما تظهر انفعالاتها في الساعات التاريخية القومية الملحمية[7]. وقد أطلع عليه عالم النفس فرويد؛ فأشاد به رغم تحفظاته، وترك فيه أبرز ملاحظاته مسجلا تعليقاته المهمة، والاكثر من ذلك أنه أستوحى منه نظريته النفسية في تحليل اللاشعور الجمعي والانا[8].

عندما كشف لوبون عن الطباع العامة للجمهور، بدا متأثرا بشكل كبير بمواطنه الفيلسوف والمؤرخ والناقد الأدبي والفني الفرنسي هيبوليت أدولف تين *Hippolyte Adolphe Taine* (1828-1893م)، الذي أكد على ضرورة دراسة التاريخ بمنهجية العلوم الطبيعية ويبدو انه زاوجها مع منهج البحث التاريخي، وقد

1- منصر: فلسفة غوستاف لوبون السياسية والتاريخية وأبعادها السيكولوجية، مجلد 3، عدد 1، 2021م، ص 296.

2- فلسفة التاريخ ، ص 70.

3- المرجع نفسه، ص 57.

4- حسن: قراءة في فكر غوستاف لوبون في تفسيره لنشوء وتطور الحضارة، ص 62.

5- هيكل : تراجم مصرية وغربية، ص 187.

6- سيكولوجية الجماهير، ص 18.

7- المرجع نفسه، ص 54.

8- الشهري: غوستاف لوبون، ص 101.

عرف عنه تسخيره للعلم الوضعي في فهم "علم نفس الحشود"، حاثا على مراعاة الظروف المحيطة بالحدث والمحكومة بثلاثة عوامل هي: العرق والبيئة والزمن.

لقد صاغ لوبون من وحي "علم نفس الحشود" فرضيته في طباع وسلوك الجماهير التي أحدثت الثورة الفرنسية، ومن ثم عاد وجمع تأويلاته وتأملاته المعمقة في ما أسماه بـ"الروح" و"المزاج" للأمم والأعراق والشعوب في كتابه "السنن النفسية لتطور الامم"؛ فتداول فيه مصطلحاته "المزاج النفسي"[1] و "روح الامة"[2]، مشيرا الى ان روح الامة اقوى من روح الجماعة العرضية؛ فمن الصعب إماتتها لأنها روح دائمة(ثابتة)[3]؛ وفي الوقت ذاته عد "روح الاجتماع" التي كتب عنها في مصنفه "سيكولوجية الجماهير" من الاهمية التي لا يستهان بها في حياة الامم، لدرجة انها كما يرى حلت بتأثيرها محل الأفراد[4].

رأى لوبون في مسألة وضع السنن لروحية الجماهير شيئا من الصعوبة، للاختلاف الحاصل بين الأمم والأعراق والشعوب، من حيث التشكيلة والسمات وحتى في المحرضات[5]، وكذلك في النفسية الدينية المهيمنة على بعضها[6] والانفعال السريع والنزق الذي يجعلها مفرطة في مشاعرها[7].

وافقت رؤية لوبون أعلاه مع اعتقاده بأن نفسية الامم تشكلها عدد قليل من المبادئ الاساسية اللاشعورية(الباطنية) والتي لها سلطان قاهر يتحكم بنشوء حضاراتها أو انحطاطها [8]، اذ يمكن عدها كعوامل لظهور الامم حين تحولها الى طباع أو مزاج، ذلك انها عندئذ تقوم برسم الأخلاق وتحفيز العواطف المسببة للأحاسيس التي تصدر المشاعر، ومن هنا نفهم كيف تحكم المبادئ وتتولى التوجيه بشكل غير مباشر للقيم الأخلاقية والعلوم والمعارف والفلسفة والأفكار والآداب والفنون، فضلا عن التقاليد والعادات والنظم وتوسمها بطابعها العام[9].

في تصنيفه لطباع ومزاج الأمم (النفسية العامة) أعتمد لوبون على نفسيتها وخلقها التاريخي! فـ :" تاريخ الامم يقص خبر الحوادث المعينة بتأثير مختلف المشاعر التي يندر ان يوجهها العقل"[10]، وان من عناصر الطباع النفسية تأثيرا معنويا وفاعلية في تاريخ الامم وتراثها الحضاري[11]هي الأخلاق (الفردية والجمعية)؛ فهي عنصر ثابت وأساسي فـ :"خلق الأمة لا ذكائها هو الذي يُعِّن تطورَها في التاريخ وينظم مصيرها"[12] و"نحن اذا ما بحثنا في الاسباب التي أدت الى انهيار الامم، وهي التي حفظ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم نجد أن العامل الأساسي في انهيارها هو تَغَيُّر مزاجها تغيرا نشأ عن انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمةً واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها"[13].

1- فلسفة التاريخ، ص 24.
2- السنن النفسية لتطور الأمم، ص 184.
3- جوامع الكلم، ص ص 19، 49.
4- روح الاجتماع، ص 11.
5- سيكولوجية الجماهير، ص55.
6- الآراء والمعتقدات، ص 184.
7- روح الثورات والثورة الفرنسية، ص 71.
8- لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ص ص 117، 143- 144، 186.
9- المرجع نفسه، ص 152.
10- لوبون: فلسفة التاريخ، ص128.
11- المرجع نفسه، ص ص115، 117.
12- المرجع نفسه، ص 50.
13- حسن: قراءة في فكر غوستاف لوبون في تفسيره لنشوء وتطور الحضارة، ص 17.

وهكذا فان مجريات التاريخ عند لوبون تقوم:" على كون شأن الخلق أشدَّ نفوذاً بمراحل من شأن العقل في مصير الأفراد والشعوب"[1]، ويحاول لوبون توثيق ذلك بقوله:" على الدوام سيطرت الأمم ذوات الخلق القوي على الامم ذوات الخلق الضعيف أو المتردد مهما كان ذكاؤها، ومن ذلك أن الرومان قهروا الإغريق [الإغريق]بسهولة، وذلك في زمن كان الرومان فيه قليلي التمدن، وكان الإغريق فيه أرقى بدرجاتٍ من قاهريهم ذكاء وثقافة ويستمر ذات الحادث على الظهور في الأزمنة الحديثة، ومن ذلك أن ثلاثمائة مليون (300.000.000) من الهندوس يمتازون بمعارفهم الفنية والفلسفية، استعبدوا من قبل جيش لا أهمية له عدداً، بسبب خلقهم الضعيف"[2].

وعليه فخلق الامم كما يراه لوبون هو من يكوّن مجدها الحقيقي[3]، وقد شبه تغير الاخلاق عند الامم بالصخرة التي تلطمها الأمواج يوما بعد يوم في عدة قرون قبل ان تتمكن هذه الأمواج من ثلم أطرافها[4]. وهو بالوقت ذاته يفرق لوبون طباع الأخلاق بين فئة المحافظين والثوريين؛ فالثوريين يميلون بفعل طبعهم الى الثورة ضد جميع ما يحيط بهم غير مبالين بنظام الامور نفسه وتتألف كتائبهم على العموم من الذين أنحلت أخلاقهم الثابتة الأرثية بتأثير مختلف العوامل؛ فصاروا لا يلتئمون بالبيئة التي يعيشون فيها، ونعتبر كثير منهم من فصيلة المنحطين ذوي الأمراض والعاهات الذين لم يلتئموا بالمجتمع فأصبحوا حاقدين عليه بحكم الطبيعة، كما يحقد الهمجي على مدنية أكره على الخضوع لمبادئها، وعلى نسبة تقدم الحضارة يزداد هذا الجيش [من الثوريين]، وسيكون إنقاذ المجتمعات من هجماته العنيفة من أشد مشاكل المستقبل خطراً"[5].

أما الجماهير اللاتينية (فرنسا، إيطاليا، إسبانيا) فقد صورها لوبون بأنها أكثر عاطفية من الجماهير الانگلوسكسونية (إنكلترا) في حين وصف الجماهير الشرقية بأنها الأكثر عاطفة من العرق اللاتيني! وكذلك رأى ان ما لحق بفرنسا من الكوارث في الماضي القريب، من كل هزائمها والصعوبات التي واجهتها إنما هي من جراء سيطرة الجماهير فيها على ساحة الاحداث ومثاله من التاريخ الحديث نجده في تشبع نابليون بونابرت بأحلام العلياء والمجد الحربي والزهو والدعاية الثورية، إنما يعود الى تقمصه للمزاج النفسي لشعبه الفرنسي، ليصبح بدوره بطلا شعبيا يسير معه مائة ألف(100,000) ما بين مراتب عسكرية وجنود مستعدين للتضحية من أجل قضيته، فطاف بهم "مدة خمس عشرة[15] سنة سعياً وراء أشدِّ المغامرات حماقةٌ"[6]!

كانت طباع الأمم النفسية عند لوبون ثابتة تنتقل اليها من أسلافها بالوراثة[7]، مما يتيح لها إنتاج الحضارة[8]، مما يعني ان للأموات تأثيراً كبيرا في تقدم حضارات الأمم أو انهيارها، لما" يكون لروح الأموات من السلطان الهائل على الأحياء"[9]. كذلك أشار الى ان هناك ثلاثة(3) عوامل وراء قوة الامم هي: أولا الاحتفاظ بنظمها الأصيلة وتقاليدها الموروثة، وثانيا تعديلها لهذه النظم والتقاليد يكون تدريجيا بمعنى شيئا فشيئا، و"قلما وجد بين الامم من حقق هذا المقصد إلا الرومان قديما والإنكليز في هذا الزمان"[10]، وثالثا

1- حسن: المرجع السابق والصفحة نفسها.

2- المرجع نفسه، ص 127.

3- المرجع نفسه والصفحة .

4- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

5- لوبون: الآراء والمعتقدات، ص ص 104-105، 106.

6- لوبون: سيكولوجية الجماهير، ص 64؛ منصر: المرجع السابق، ص167.

7- المرجع نفسه، ص 19.

8- حسن: المرجع السابق، ص 64.

9- المرجع نفسه، ص ص 13، 166.

10- لوبون: جوامع الكلم، ص 23.

المشاعر وفيها تكمن القوة الروحية للجند وأفراد الامة؛ فلقد ساد الرومان على الدنيا بروحهم الموحدة المشاعر؛ فلما أضاعوا، هذه الوحدة ضاعت روحهم وضاع ملكهم[1].

ومن بين ما توصل اليه لوبون من عناصر نفسية مسببة للتقلبات السياسية لدى أمم اللاتين لا سيما الفرنسيين، هي حاجتهم الدائمة لمساعدة حكومتهم إذ:" ان عنصر بارز من عناصر مزاجهم النفسي الموروث من الأجداد، هو احتياجهم أن يساعدوا ويوجهوا في أدق أعمالهم من قبل حكومةٍ؛ فالحكومية هي النظام الوحيد الممكن لدى الامم اللاتينية وان اختلفت الأسماء"[2].

مما تقدم أعلاه يتبين ان المبادئ القليلة المشار لها من قبل لوبون هي برأيه مفاتيح الامم وسر قوتها الحقيقية وهي التي تحدد مصيرها! ومع ذلك فهي تتميز بكونها بطيئة التغيير أو الزوال[3]، وان سبب بطأ تغيرها يعود الى التراكمات الموروثة للأخلاق والعواطف[4]، التي تكسبها مع الزمن ثباتا[5]، إذا لم يكن في التغيير تحسينا[6]؛ بمعنى إن أي تغيير يحدث لهذه المبادئ يعني انتهاء الحضارات أو القضاء عليها[7].

لقد تعامل لوبون مع المعتقدات الدينية من باب انها أقوى المبادئ في نشأة وانهيار الحضارات! فالدين برأيه هو أهم عنصر في حياة الامم وله قوة مؤثرة على مزاجها النفسي؛ فهو عامل موحد لمشاعر للامة، لذا يتحتم على الحكومات المدنية ان لا تعادي الأديان فـ:" كل حكومة تضطهد الأمة في معتقدها هالكة من يد هذا المعتقد"[8].،وأن الأضعف تأثيرا في ذلك هي الآثار الفنية مثل حال أمة الرومان؛ فعندما انهارت كانت قد بلغت درجة عالية في رقيها الفني [9].

عندما رصد لوبون أمثلته التاريخية، لوحظ إن معظم الحوادث التاريخية كانت من جراء التعصب للمعتقدات الدينية بشكل من الاشكال، ذلك انها تمثل الذاتية الروحية في صورة قومية(طابع جمعي)[10]، وان المسألة الدينية ما انفكت بكونها" من المسائل الأساسية في قديم الأجيال وحديثها، ولا يغيب عن البال ان جميع النظم السياسية والاجتماعية منذ بدء الأزمنة التاريخية قامت على معتقدات دينية"[11] وإن :" للمعتقد القوي القوة التي لا تقاوم؛ حتى خضعت دولة الرومان المنيعة لجيوش من رعاة البدو[المسلمين] الذين أضاء قلوبهم ما جاء به محمد[عليه وآله أفضل الصلاة والسلام]من الإيمان"[12].

وعلى سبيل المثال أيضا ان تغيير اسم الإله وحده كافي لـ"قلب العالم من فوره رأسا على عقب"[13]، وان" المعتقدات وحدها عندما تتغير فانك تجد التاريخ من جراء ذلك سيكون حافلاً بالانقلابات"[14]؛ فقد" تبنى الثورة السياسية في أول أمرها على اعتبارات معقولة، لكنها لا تنتشر الا بضغط المشاعر والمعتقدات، مما لا

1- المرجع نفسه، ص 19.
2- فلسفة التاريخ، ص 125.
3- لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ص 21.
4- المرجع نفسه، ص 143.
5- المرجع نفسه، ص37.
6- حسن: المرجع السابق، ص 82.
7- لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم ، ص ص144.
8- لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم ، ص ص 157، 160؛ جوامع الكلم، ص 49.
9- المرجع نفسه، ص 77.
10- المؤلف نفسه: فلسفة التاريخ، ص 49.
11- السنن النفسية لتطور الامم، ص 157.
12- أبو خليل: غوستاف لوبون، ص 18.
13- المرجع نفسه، ص 186.
14- المرجع نفسه، ص 161.

دخل لشيء من العقل فيه؛ فالثورات من عمل الجماعات"[1]، وينقل لنا لوبون بهذا الصدد عن المؤرخ والسياسي الفرنسي فرنسوا غيزو *François Guizot*(1787-1874م) قوله :" تصفحوا تاريخ ما بين القرن الخامس عشر(15) والقرن الثامن عشر(18) تجدوا ان علم اللاهوت هو الذي يسيطر على الروح البشرية ويوجهها؛ فتطبع جميع الآراء بطابع علم اللاهوت، وينظر الى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية من الوجهة اللاهوتية دائماً، وما يمكن للعوامل الدينية ان تؤثر به في أفكار الناس"[2]، كذلك فان رجال فرنسا قد تبدل مزاجهم النفسي من القرون الوسطى من حيث المبدأ الديني والمبدأ الإقطاعي، ثم عصر النهضة حيث تحول مزاجهم الى المثل العليا الإغريقية[اليونانية] اللاتينية، قبل ان تحدث الثورة الفرنسية الكبرى (1789م) بفعل تحولهم من التأثير اللاهوتي الى التأثير العلمي[3].

أشار لوبون الى انه يمكن وبسهولة ملاحظة الفرق بين الطبع النفسي للأفراد الذين يحكمهم الوعي والمنطق (العقلانية) وبين الطبع النفسي الجمعي للجماهير الذي يتسلط عليه ويحكم سلوكيات الشعور اللاوعي(اللاعقلانية)[4]، ولذا فان الأفراد عادة ما يخوضون صراعا مع الجماهير، وهذا الصراع هو السبب ببطء تقدم التاريخ![5] وتكون الغلبة هنا للجماهير، حيث يعدم الأفراد ذاتيتهم النفسية التي تذوب في ذاتية الجمهور! ولا يعودون يشعرون بما قد يجره عليهم العمل الجماعي من تبعات لا تنبغي له بحالته الفردية[6]، اذ يفقد استقلاليته، ويهبط بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله في نفسه كان فردا عقلانيا مثقفا مهذب الخلق، ولكنه في الجماعة يصبح ساذجا بغريزة فطرية، فيه اندفاع شديد وحماسة وقسوة وعنف، وهو تماما ما حدث في الثورة الفرنسية[7].

إن الأفراد هم من يعول عليهم إنشاء الحضارات الراقية، لأن الارتقاء يقوم على الوعي الفردي، فيما يغلب على الجماهير مزاجها النفسي اللاواعي، الذي يهدم ما بني من حضارة وتمدن ومكاسب في التنوير، والمثال الاوضح لذلك ما سجله لوبون عن الثورة الفرنسية من ملاحظاته كقوله :" استولت الفوضى النفسية على طبقات المجتمع؛ فكان أشراف الولايات حاقدين على الأشراف المقربين[من البلاط]، وكان صغار الأمراء الاقطاعيين حاقدين على كبرائهم، وكان سكان القرى حاقدين على سكان المدن"[8]. ويستمر لوبون في تصوير المشاعر الكامن في نفوس الثوار(طباع الجماهير) :" فإذا صح أن الجماعة شريرة في كثير من الأوقات؛ فمن الصحيح أيضًا أنها شجاعة في أوقات كثيرة أخر، تلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها إلى التقاتل في نصرة الدين أو تأييد المذهب، أو يستحثونها للعمل في سبيل المجد والفخار، فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما في حروب الصليبيين، أو للذود عن حومة الوطن كما وقع في سنة 1793م"[9].

أراد توينبي تفسير ديناميكيات الحضارات، وطرح فلسفته التاريخية عن نشوء وتطور الحضارات المبدعة القديمة(الكلاسيكية)، في محاولة منه لدراسة آليات نهوض الشعوب والحضارات وأسباب انهيارها، على انه اقتبس فكرة التحدي والاستجابة من علم النفس السلوكي للأفراد عند يونغ، الذي حلل نفسيا تفاعل

1- جوامع الكلم، ص ص 19، 44.
2- فلسفة التاريخ، ص 56.
3- السنن النفسية لتطور الامم، ص ص 145، 162.
4- لوبون: سيكولوجية الجماهير، ص 18؛ روح الاجتماع، ص 27.
5- منصر: المرجع السابق، ص 295 .
6- روح الاجتماع، ص 28.
7- منصر: المرجع نفسه، ص 296.
8- لوبون: روح الثورة والثورات، ص 99.
9- المرجع نفسه، ص 30.

الفرد مع بيئته؛ فربط سلوك الأفراد نفسيا بتاريخ تطور المجتمعات ! ومن هنا أستلهم توينبي فكرة الصدمة النفسية الفردية، وصاغ نظريته كقانون في" التحدي والاستجابة" *Challenge and Response*، على أساس ان التحدي قد يولِّد استجابة نفسية وسلوكية (ايجابية) مبدعة لدى الأفراد، تُعيد لهم التوازن وتدفع بهم نحو النمو.

شخص توينبي نوعين من الاستجابة فهي إما إيجابية خلاقة وأما سلبية هدامة، ففي حالة الاولى يصبح الأفراد متفوقين مَرِنْين متفاعلين، يتحدون الأزمات الشديدة، والواقع الصعب والقاسي ويتغلبون عليه؛ فيتجاوزونه بالأبداع والابتكار ويصنعوا واقع جديد لهم، مناسب لمتطلبات عصرهم ومقتضياته؛ فتنتعش حضارتهم وتتميز بنهضتها المبهرة، وإما أن تكون استجابة سلبية وتتمثل في جمود الافراد وعدم قدرتهم على التكيف؛ فتنكمش حضارتهم وتتحجر بتقوقعها على ذاتها وتنهار وتنتهي بان تحل محلها حضارة اخرى، وهنا يحاول افرادها الانطوائيين والمنعزلين الرجوع الى ماضيهم والتمسك به في محاولة يائسة لاستعادته تعويضا عن الواقع المر، لتنتهي بذلك حضارتهم بطغيان حضارات اخرى لتحل محلها . وقد ضمن نظريته هذه بموسوعته التاريخية الحضارات بأثني عشر (12)مجلدا، استغرق في تصنيفها احدى وأربعون(41)عاماً.

المبحث الثالث: العوامل النفسية وعلاقتها بالحروب عند الشعوب

بسبب تنازع الشعوب فضلا عن الافراد، وصراعات البقاء للأقوى لا للأصلح؛ فإن أسباب الحروب تعددت؛ فمنها ذات الطابع الديني العقائدي ومنها التوسعي والجغرافي والاقتصادي، وغالبا ما تنتهي بنهب ثروات الشعوب المسالمة والضعيفة وفي العموم يتحكم المزاج النفسي للشعوب في نشوب الحروب! ولهذا أتجه علماء النفس الى البعد الاجتماعي لمحاولة فهم الظواهر والسلوكيات العنيفة لدى الافراد والجماعات، لا سيما عند الشخصيات السادية الميالة للعنف والقتل والتدمير، سواء كان في الأنظمة الدكتاتورية الشمولية(مثال سادية صدام حسين(1979 -2003م) ضد شعبه وشعوب الدول المجاورة للعراق) أو كموجات المغول الهمجية أو مثل الحركات السياسية القومية كنازية هتلر، أو الفاشية الإيطالية المتطرفة لموسوليني، أو كما في الثورات كالثورة الفرنسية.

لعل من أهم واجبات المؤرخ هيه سعيه لفهم الديناميكيات الفعلية للعملية التاريخية، حيث يقوم بدراسة انعكاس الحياة الاجتماعية على عقول البشر وتحولهم الذاتي(الشخصي)، من جراء المفاهيم والتخيلات والعواطف، وتحكمها بالغرائز والأهواء التي يصعب زجرها بالفكر والأخلاق، عندها يغلب العنف على المزاج النفسي للأفراد والجماعات على السواء! ويطغي الميل الى استخدام القوة المفرطة مما قد يسرّع من وتيرة الأحداث[1]. وهذه "هي المهمة الأولى لعلم النفس الاجتماعي التاريخي، والتي ترتبط بأكثر مشكلة منهجية للمعرفة التاريخية"[2]، ولذلك لا يُمكن للمؤرخ أن ينأى بنفسه عن تحليل نفسية الافراد العنيفين التي تبرز افعالهم في الأحداث.

اولى الإشارات الكلاسيكية لتحليل المزاج النفسي للجمهور العنيف، كانت في الاعتقاد بان الشعوب التي تكون تحت الاضطهاد والقهر والدكتاتورية تسوء اخلاقها، ويرى لوبون ان الإيطاليون هم أول من تكلم عن الجماهير المجرمة في القرن التاسع عشر(19) الميلادي؛ فهي تتألف من الرعاع والأوغاد والحاقدين؛ فهم يجسدون العنف الهائج بدون سبب أو مبرر يعصون السلطات ويخرجون على القانون! يهاجمون بعنف

1- غورفيتش: بعض جوانب دراسة التاريخ الاجتماعي، الحوار المتمدن، العدد 7012.

2- المرجع نفسه والمكان نفسه.

ويقتلون ويسلبون كل شيء[1]، ولهذا نجد ان غالبية الحكومات قد بدأت تضع في حسبانها "توصيات علماء النفس وعلماء الاجتماع"[2].

ان تكرار تجارب الحروب أفادت الباحثين في مسألة تشخيص اخلاقياتها فإن :" أي درس نستخلصه من معركة من المعارك، أو كارثة اقتصادية من كوارث مجتمع ما، أو انتكاسة ثقافية، بحيث يفتقر هذا الدرس الى القياس النفسي، والى إعادة فهمه بوسيلة من وسائل دراسة السلوك، لهو درس فج ساذج لا يقدم الفائدة المرجوة"[3]. ومع ان القوانين التي تحكم الأفراد تختلف عن القوانين التي تحكم المجتمعات[4]، الا ان العامل النفسي والاجتماعي يتجلّى بشكلٍ واضح وصارخ في أخلاقيات الحروب! لا سيما وان التحريض على العدوان هو صفة فطرية من صفات البشر[5]؛ فالدوافع والسلوكيات العدوانية هي الاكثر طبيعية وواقعية كميول ونوازع متجذرة عند البشر[6]، ومن تجارب الانسانية ان هذه الميول لا يمكن توقفها أو إيقافها، بمعنى لا يمكن:" القضاء على غرائز الحرب المتأصلة في الإنسان"[7].الا في حالة وجود قيود قوية قاهرة.

يفسر الإسلام السبب النفسي للحروب بقوله تعالى:" النفس الأمارة بالسوء"[8] وعن خلق الإنسان جاء القول في محكمه:" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"[9]. مما يبدو واضحا من تاريخ الحروب وأساس الميول العدوانية الغريزية للبشر في الإفناء والتدمير؛ فهي من المنظور النفسي تعد استجابة طبيعية كرد فعل لوقاية الذات، أو إنه عنف يرد على عنف[10].

وحيث ان العنف يولد العنف، فانه" يولد عنفاً أعمى وأشد خطورة من الأول "[11]، والحقد يولد الكراهية، والكراهية تولد الكراهية، وان الروح القتالية للجيش لا تتحدد فقط من خلال الايديولوجيات(العقيدة العسكرية) التي يُقاتل الجيش بالإيمان بها ولكن أيضاً بالحالة المزاجية السائدة بين جنوده في هذه اللحظة[12].

وهنا نشير لقول الكاتب والمؤرخ وعالم الاجتماع الانكليزي هربرت جورج ويلز *H. G. Wells*(1866-1946م):" اذا لم نقضي على الحرب فالحرب ستقضي علينا"[13]، وفي تشخيص أسباب العنف أو الحروب والتي تتملك المزاج النفسي للبشر وتكاد تكون السمة الرئيسية في أحداث التاريخ[14] نجد ان "الحرب فطرية في الطبيعة البشرية "[15]، ويعبر فرويد عن ذلك برؤيته ان العنف والعدوان هو من السمات الأكثر جوهرية وحتمية في الطبيعة الإنسانية، وان له أُسس عميقة في النفس البشرية، حيث يقول:" ان العدوانية استعدادا غريزيا بدائيا ومستقلا بذاته لدى الكائن البشري"[16]،

1- سايكولوجية الجماهير، ص 29.
2- بيداويد: علم النفس في التاريخ، الحوار المتمدن، العدد 6952.
3- إبراهيم: علم النفس والتاريخ، ص 140.
4- حفني: حول التفسير النفسي للتاريخ، ص ص 31 – 32.
5-عسران :المرجع السابق، ص 904.
6- فرويد: لماذا الحرب؟، ص 87.
7-عسران: المرجع السابق، ص 904.
8- سورة يوسف، الآية 53.
9- سورة البقرة، الآية 30.
10- إبراهيم: المرجع السابق، ص 140.
11- بوية: العنف يولد العنف ، الحوار المتمدن، العدد 7931.
12-غورفيتش: المرجع السابق والمكان نفسه.
13- فرويد: لماذا الحرب؟، ص 5.
14- بوية :المرجع السابق ونفس المكان.
15- سعيد: سيكولوجية الحرب والحرب النفسية ، موقع الجليل للخدمات النفسية.
16- قلق في الحضارة أو الحضارة وإحباطاتها، ص 86 .

ورغم كل الكوابح والروادع الإنسانية والأخلاقية والدينية التي تحث على الفضائل، الا ان التاريخ مليء بالصراعات والعنف[1]. وبخلاف الاعتقاد السائد نجد إن أصحاب النظرية الماركسية ينظرون للإنسان بأنه كائن طيب سمح يحمل الخير للآخرين، وأنه لا يهاجم الا دفاعا عن نفسه، ولم يقحم في العنف والصراعات الا بسبب ظهور الملكية الخاصة للأشياء وما رافقها من الاستغلال الاقتصادي والتفاوت الطبقي[2].

الخاتمة

يعد علم النفس من العلوم المساعدة التي يفترض بالباحث والمؤرخ الإحاطة بها، لا بل أكثر من ذلك، لما له من أثر مهم وخطير في دراسة التاريخ، يتمثل بفحص وتحليل المزاج النفسي(دوافع حسية وردود أفعال عاطفية)، إنه الطبع النفسي الذي يمنح الديناميكية لسلوك الأفراد والجماعات (أمم وأعراق وشعوب)، وعليه فكل ما يقدمه التحليل النفسي من حقائق ومعلومات تفسر الأسباب والعوامل والدوافع المباشرة وغير المباشرة للسلوك الإنساني، يساعد المؤرخ في وضوح مجريات الاحداث التاريخية وتسلسلها وسيرورة تشكلها، وتحقق له مزيدا من الفهم والتعمق في كشف حقائقها وبعث الروح فيها وتقديم صورة أقرب الى الواقع، لتكون خطواته في مجال البحث العلمي التاريخي أكثر منفعة وفائدة في تصوير الواقع الزمني للتاريخ.

بدت الحاجة ملحة للعمل وفق مصطلح سيكولوجية التاريخ *Psychohistory* ! ومن هنا نفهم مدى صعوبة واستحالة فصل علم النفس عن علم الاجتماع، وبالتالي فصلهما عن علم التاريخ ذاته، لما بين هذه العلوم من تداخل واضح ومع ذلك فعلم نفس الفرد يختلف بخصائصه عن علم النفس الجماعي، فالشخصية الفردية الواعية تتلاشى امام الشخصية الجمعية اللاواعية وتذوب بخصائصها تماما.

كان لوبون أهم فلاسفة التاريخ في عصره في التحليل النفسي، حيث سلط الضوء على الجانب النفسي في تفسيره وكتاباته التاريخية، وعدَّ الطبع والمزاج النفسي محركا أساسيا لمختلف انفعالات الأنسان! وهي المسببة للمتغيرات الاجتماعية والسياسية عبر الأزمنة وفي كل الأماكن. لقد أستعان لوبون بعدة حقول معرفية منها الأنثروبولوجيا وعلم الآثار وعلمي النفس والاجتماع، وكان ان أنشأ مصطلح الجماهير! معتبرا اياها ظاهرة اجتماعية وسياسية وثورية في المشهد الاوروبي؛ فهو أول من حاول فهمها والكتابة عنها، كذلك توصل الى ان تطورات المجتمعات تتم غالبا بتأثير اندفاعات عاطفية بحتة.

المراجع:

أ- الكتب:

1- إبراهيم، ريكان: علم النفس والتاريخ، ط 1، دار ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع، عمان – 1435هـ/2014 م.

2- سيجموند، فرويد:

أ- لماذا الحرب ؟، ترجمة جهاد الشبيني، ط 1، منشورات تكوين، الكويت، بيروت، بغداد- 2018م .

ب- قلق في الحضارة أو سخط الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، ط 4، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – 1996م.

3- الشهري، فايز بن علي: غوستاف لوبون، ط 1، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، بيروت، الدار البيضاء- 2019م.

4- لوبون، غوستاف:

أ- السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، 1950م.

ب- سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، ط 1، دار الساقي، بيروت- 1991م.

ت- فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، 1954م.

ث- روح الاجتماع، ترجمة أحمد فتحي زغلول، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- بلا . تاريخ.

1- أبيداويد: المرجع نفسه ونفس الموقع.

2- بوية: المرجع السابق ونفس المكان.

ج- الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، ط 1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة-2014م.
ح- جوامع الكلم، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ط 1،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة-2021م.
خ- روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة-2012م.
5- كوثراني، وجيه: تاريخ التأريخ اتجاهات – مدارس- مناهج، ط 2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، بيروت- 2013م.
6- هيكل ، محمد حسين: تراجم مصرية وغربية، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة- 2012م.

ب- البحوث:

1- حسن، هيفاء رشيد:
أ- قراءة في فكر غوستاف لوبون في تفسيره لنشوء وتطور الحضارة، مجلة تكريت للعلوم السياسية، العدد 23، السنة 2021م.
ب- قراءة في فكر غوستاف لوبون سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، ط 1، دار الساقي، بيروت-1991م.
2- جداوي، يمينة: المدرسة الوضعية التطور والخصائص، مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية، المجلد 1، العدد 2، 2020م.
3- دوس، فرانس: التاريخ والتحليل النفسي جينيالوجية علاقة، ترجمة أنس زيري، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات ومعهد الدوحة للدراسات العليا، العدد 23، 2025م.
4- محمد، رريب الله ويموتن علجية: العلاقة بين علم التاريخ وعلم النفس والتأثير المتبادل بينهما، مجلة أبعاد، مجلد 8، العدد 1، 2021م.
5- صالح، أحمد عبد الرضا رحمان وهيثم محي طالب الجبوري: مدرسة الحوليات ودور فرناند بروديل فيها 1029-1985م، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الانسانية، المجلد 16، العدد 1، 2025م.
1- عسران، سهام رسلي عبد الباسط: العلاقة بين الحضارة وعلم النفس سيجموند فريد نموذجا، مجلة كلية الآداب- قنا، جامعة جنوب الوادي، م 34، العدد 66، 2025م.
6- منصر، محند شريف: فلسفة غوستاف لوبون السياسية والتاريخية وأبعادها السيكولوجية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 3، العدد 1، قسم الآداب والفلسفة، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر–2021 م.

ت- المقالات :

2- أبو رزق، عطا: العنف يولد العنف ويرتد على صانعيه، مجلة دنيا الوطن، https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2019/01/10/482319.html

3- بوية، محمد الأغظف: العنف يولد العنف، الحوار المتمدن، العدد 7931، 2024 م، https://www.ahewar.org/debat/s.asp
4- بيداويد، يوحنا: علم النفس في التاريخ، الحوار المتمدن، العدد 6952، 2021م، https://www.ahewar.org/debat/s.asp
5- حفني ، قدري: حول التفسير النفسي للتاريخ ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد 60 ، السنة 1970 م.
6- سعيد، محمود صبحي: سيكولوجية الحرب والحرب النفسية، موقع الجليل للخدمات النفسية، https://algaleel.com/index.php?todo=articles&id=5&lang=ar

7- عطار، أحمد: أبستمولوجيا التاريخ ومدرسة الحوليات، العدد 97، السنة 24، 1439هـ/20017م، https://kalema.net/hom/articale/view/1126

8- العلي ، عباس علي: علاقة التاريخ بالسيكولوجيا ، الحوار المتمدن ، العدد 7029 ، 2021م https://www.ahewar.org/debat/s.asp

9- غورفيتش، آرون ياكوفليفيتش: بعض جوانب دراسة التاريخ الاجتماعي-السيكولوجيا الاجتماعية التاريخية، ترجمة مالك أبو عليا الحوار المتمدن، العدد 7012، 2021 م.

10- موحن، وليد: الاتجاه الدوركايمي في فلسفة التاريخ، الحوار المتمدن، 2015م ،

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=470102#google_vignette